

أنا.. رجل تائب.. استقيمت وصلح حالي كما تقول الأوراق الرسمية والمعتمدة، وهذا هو المهم.. مثقف أنا مستتير لم أصل إلى هذه المرحلة إلا بعد معاناة وتعب... ولكن.. ولكنني مازلت صغيرا والمستقبل أمامي مشرق.. هكذا يردد السادة الكبار الذين أخافهم وأحترمهم.. حق الاحترام.. مالي أنا وابن كثير وابن الأثير.. والنسفي والنووي... مالي أنا وكل هؤلاء...



عبد الجواد الحمزاوي
مصر

قلت لنفسني: وأنا أنظر إلى تل الكتب الذي رفعته من على أرفف مكتبتي ليذهب إلى «الصندرة» وما الذي يمنعي لأن أبين للناس المضللين والمغرر بهم قيمة الفنون في الدولة الإسلامية؟..

كتاب الأغاني بأجزائه الضخمة يناديني.. يصرخ في أن تعال إلي فعندي بغيتك.. ابتسمت لنفسي وأنا

كنت في عمياء مظلمة.. حبست نفسي مع الجاحظ وابن قتيبة، وحبيب الطائي وأحمد المتنبي.. أين كان عقلي؟! أيامها لم يكن هناك تليفزيون ولا فيديو، فكيف يقضي عمرو ابن بحر وقته.. ليس غريباً أن يستأجر مكتبة يبيت يقرأ فيها.. وهذه أيضاً أشك فيها الآن.. ما الذي يجعله يدفع نقوداً وكان بإمكانه أن يتقاضى هو نقوداً من جراء حفظه وحراسته لهذه المكتبات ليلاً...

انظر كيف تفتحت عيني وارتفعت الغشاوة من عليها؟! شيء جميل أن يحس الإنسان بنسائم الحرية، أن يجد نفسه محترماً لدى الكبراء خاصة في دوائر الشرطة المحترمة والمبجلة جداً... لا يزال ماضي المظلم والكثير يطاردني مثلما كان يطارد حذاء أبي القاسم الطنبوري أبا القاسم... أمس زارني صديق تائب مثلي وطلب مني أن أبرهن على إخلاصي وإيماني بالنظام العالمي الجديد، إذ لا زال هناك شك في... شك في أنا؟!...

هل هذا معقول؟.. شهران وأنا لم أفتح كتاباً ولا مصحفاً... ابتعت فيديو بالتقسيط أتفرج فيه على ما كنت منه محروماً طوال سنوات وسنوات.. لا أنكر أن أسلوب العلاج كان قاسياً ولكنه أتى بنتيجة رائعة وهذا هو المهم.. ثم ماذا يفعلون في وقد فشلت الوسائل الأخرى في علاجي، وأنا نفسي كنت أقول إن آخر الدواء الكي... أف.. رجعت ثانية للقديم البالي.. لا بأس.. لا بأس.. مع الأيام ستتحسن حالي.. نعم.. ستتحسن حالي تدريجياً بعد أن عولجت بالصدمات الكهربائية، وهذا أسلوب متقدم جداً في العلاج توفره الدولة للحالات التي كان ميؤوساً منها من أمثالي.. وللحق، فقد أتى بنتائج باهرة...

قلت بصوت مرتفع رداً على سؤال بائع الجرائد الغبي الذي يقف في ناحية شارعنا، والذي كان يسأل في دهشة..

«تريد صحيفة مايو؟»

«نعم أريد مايو يا متخلف»..

أتصفح العناوين الحمراء الكبيرة، وأعجب من هذا «محمد فارح عبيد».. ما الذي دعاه لأن يقف في وجه القطار؟!.. ألم يكن خيراً له أن يعيش محترماً بدلاً من هذا الموقف الذي وضع نفسه فيه؟

أعتقد أنه هو الآخر يحتاج للعلاج بنظام الصدمات الكهربائية ليفيق مما هو فيه... ثم هذا الآخر يرفض هو وبرلمان البوسنة خطة السلام؟... إذا فهم يستمرثون الذبح...

أنفض التراب عن بعض أجزائه وقلت: «عصفوران بحجر واحد، أثبت ولائي وصدق توبتي وأقدم نموذجاً يحتذى لأولئك الذين ينادون بالعودة للأصول والقديم عليهم يهتدون...»
لم أكن محتاجاً لإذن الحاجب لأدخل على الحياصة.. اختبأت وراء الأستار الكثيفة في غرفتها أرقب ما تفعل... جمال صارخ بهرني... لو عادت معي لصارت ملكة جمال الكون بلا منازع.. كانت تدور في غرفتها من النشوة والفرح.. تدندن ببعض الألحان.. ما هذا الصوت الجميل؟! معذور والله يزيد بن عبد الملك وأنا الذي كنت أعيب عليه شدة شغفه بالحياصة.. هذا أيام كنت لا أزال سادراً في ضلالي.. جمال صارخ وصوت يزري بصوت أم كلثوم.. أراهن لو كان عبد الوهاب حياً ورأى حذقها بالألحان واللعب على الأوتار، لمات كمدأ وحسداً منها ولها..

حينما أنهت غناءها..

ألا يا دار لا يدخلك حزن

ولا يغدر بصاحبك الزمان
لم أستطع الصبر والسكوت.. صحت وأنا أخرج من وراء الأستار... أظير... أظير...

أردت أن تنادي الحراس.. الخوف الجمها وأخرسها.. كنت أريد وأريد ولكنني تمالكت نفسي... أسير نحوها متمهلاً وأقول، - مولاتي الحياصة... أنت خير من غنى الألحان ولعب بالأوتار على مر العصور والدهور... زاد خوفها مني.. الجسد الجميل يرتعش ارتعاشات شديدة وأنا أتقدم منها، قلت:

- صدقيني مولاتي أنت خير من سلامة ومن معبد وابن ذريح... مولاتي أنا شاعر أريد أن أسمعك أبياتا قلتها فيك. لم يمض وقت طويل حتى أخذت تأنس إلي ويذهب الخوف عنها.. أنشدتها كل أشعار الغزل الجميلة التي لا تعرف ونسبتها إلى نفسي، فانا البحر تري وأنا ابن زيدون، وأنا علي محمود طه... لم تمنع حينما أمسكت بيدها وجلست إلى جانبها... صارحتني بعزمها على غناء بعض هذه الأشعار ليزيد.. قالتها بدون القاب، فسكت.

فجأة سمعت أصوات الحراس في الخارج تعلن عن قدم الخليفة.. بدون أن تطلب هي مني الاختفاء كنت قد اختفيت وراء الأستار الكثيفة... ضحكت الحياصة بصوت كاد أن ينسيني نفسي.. أردت أن أخرج لأقول.. أظير.. أظير... ولكن سيف مسرور الذي أعرف أبقاني حيث أنا أراقب ما يحدث.. دخل يزيد بن عبد الملك.. يضحك.. البشر يغطي كل جارية من جوارحه وهو ينظر إلى الحياصة.. الحاجب يتأخر كثيراً عن الخليفة. بعد أن ألقى السلام على مالكة مهجته قال:

- يقولون إنه لم يجتمع لأحد سرور قط من الصبح حتى العشاء... ضحك الخليفة كثيراً... قهقهه وقهقهه حتى دمعت عيناه.. لم أكن أدري علام يضحك.. أخيراً تمالك نفسه ثم قال وهو لا يزال يضحك وينظر إلى الحياصة:

- أنا الذي سأحوز السرور والبهجة والطرب والجمال أسبوعاً كاملاً.. معي الحياصة.. حبيبتي ونور عيني.. لا أحد معنا يضايقنا وعندنا كل لوازم الطرب والسرور.

انقطع الضحك فجأة.. الخليفة ينظر إلى حاجبه نظرات صارمة ويقول في نبرات حازمة

- يا حاجب... إياك أن تعكر صفو هذا الأسبوع علينا مهما حدث، إياك أن تأذن لأحد بالدخول عليّ مهما كان الأمر وإلا ضربت عنقك. قلت لنفسي وأنا وراء الأستار أسبوع كامل من المتعة الخالصة والسرور الكامل... هذا رقم قياسي جديد بموسوعة جيس»...

خرج الحاجب وهو يعلم أن يزيد يعني ما يقول... يزيد يجلس قدام الحياصة يداعبها وتتدلل عليه.. عبثت بذقني وأنا أقول نعم.. ما الذي يمنع هذا الملك من السرور والمتعة والطيران أسبوعاً أو شهراً أو سنة.. أمثال متخلفة قالها أناس متخلفون... الآن، نحن أمام نظام جديد.. جديد جداً.. رجل يحب الجمال ويعشق الفن»...

الخليفة يملأ بنفسه القدح للحياصة.. يرشف منه رشفة وهو يضحك.. الحياصة تتناول القدح بدلال.. تشرب.. صك سمعي سعال شديد.. الحياصة شرقت.. تسعل... تسعل... ماتت الحياصة.. لا يدري الخليفة ما يفعل... لا يريد أن يصدق أنها ماتت... يدور في المكان كالجنون... يصرخ في الحاجب والحراس.. قبل أن يدخل عليه أحد خرجت من وراء الأستار ثم لظمت وجهه بعنف وأنا أقول

- ماتت الحياصة يا غبي.. إن الله هو الفعال لما يريد...

ثم طرت راجعاً.

أعاد صاحبنا كل كتبه إلى أرففها بعناية.. أزال كل ما عليها من غبار... يريد أن يفعل شيئاً وليس يدري ما هو... أمسك بالقلم ليكتب.. كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» تلبث كثيراً بعد كتابتها.. عيناه تدمعان... أخذ يكتب ثم يعود على ما كتب بقلمه ليمحوه، وأخيراً كتب.. ربي، اغفر لي وثبطني على الحق.. قام يصلي.. لا يدري لم اختار سورة غافر من بين سور القرآن الذي يحفظه كله ليصلي بها.. لا يدري لم ابتدأ بقراءة آية: ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾.

لم يستطع أن ينتقل إلى الآية التي بعدها.. أخذ نشيجه يرتفع شيئاً فشيئاً وهو يرددها ويبيكي.. وأخيراً استطاع أن ينتقل إلى ما بعدها: ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ ارتفع بكأؤه عن ذي قبل.. دموع غزار بللت ثيابه وسقطت على سجاده... أخذ يردد بصوت واهن خاشع.. يرتفع حيناً حينما يتذكر ما حدث له ويقول... «يا عزيز انتقم... يا غفار اغفر لي، واغفر لكل المسلمين»...

أخذ يقرأ ويبيكي حتى إذا بلغ: ﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد﴾.

لم يستطع أن يستمر في القراءة... ركع... يسبح الله ويمجده... ثم رفع يسأل الله المغفرة والثبات والتمكين للإسلام في الأرض بما شاء وكيف شاء.. ثم سجد.. أطل السجود... لا يدري لم ألحت على نفسه ولصقت بلسانه عبارات لم يستطع التخلي عنها... «اللهم إن أردت فتنة، فاقبضني إليك غير مفتون»...

أخيراً أتم صلاته.. جلس ينظر إلى الكتب.. والفديو الجديد... والقلم والورق أمسك بالقلم ثم كتب بحروف كبيرة: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.